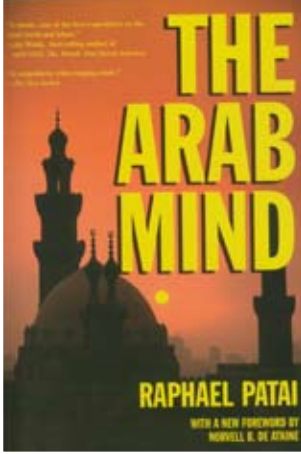


العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس



الفصل العاشر

الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

1. الاستقطاب

أثار صدمة لدى العديد من الباحثين الغربيين ما يظهره العرب علانية من ميل لاعتناق رؤية مستقطبة حول الإنسان والعالم، حيث يرون تضادا واضحا ولا يرون تدرجا، ويلاحظون العكس لا الانتقال، ويفهمون الأمور بشكل حدي دون ملاحظة الفروق الدقيقة. وكما قال لورنس العرب يوما:

ليس لدى الساميين قدرة على رؤية التدرجات اللونية. فهم أناس لا يعبؤون إلا بالألوان الرئيسية، أو بالأحرى: اللونين الأسود والأبيض فقط. ويرون العالم محددًا بخطوط... إن هؤلاء الناس ليسوا مولعين بالأسود والأبيض في الرؤية فحسب، بل في أثاث بيوتهم أيضا: ولا يستعملون الأسود والأبيض للوضوح فقط، وإنما للتعقيد أيضا، ولا ترتاح أفكارهم إلا عندما تتعامل مع الحدود، وهم يتمسكون بها مع سبق الإصرار¹.

ولم أستطع أنا نفسي أن أتحاشى وضع المقارنة نفسها مرارا وتكرارا عندما، وعلى سبيل المثال، أكون في مسرح أو صالة سينما عربية وأسمع التعليقات العالية من الجمهور وهي تملأ الممرات وتخرج من الأبواب. وعادة ما تكون هذه الآراء متماشية مع مبدأ (الأسود والأبيض)، فالفيلم إما أن يكون «ممتاز» أو «رائع» أو «عظيم»، أو أن يكون «كريه» أو «مثير للاشمئزاز» أو «تافه». ومن النادر جدا أن يسمع المرء أي تقييم بعيد عن أن يكون شاملا أو قبولا حماسيا أو رفضا مطلقا.

(1) لورنس العرب (T. E. Lawrence): أعمدة الحكمة السبعة، ص 265.

العقل العربي

الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

وفي البحث عن أصول هذه الظاهرة، حاول بعض المستعربين أن يفسروا هذا الميل إلى الحدود من خلال عزوه إلى التفاوتات التي تميز الصحراء، وأصروا على رأيهم هذا، وتبعاً لرأي ليون غوتيير، وهو من أهم مؤيدي هذه الاتجاه في التفكير، فإن الصحراء تركت انطباعات عميقة في الروح العربية، وفي وسط صحراء شبه الجزيرة العربية يلاحظ أن «الصيف القائن يتبعه شتاء فارس، وحتى ضمن الفصل نفسه يمكن ليوم حارق أن ينتهي بليلة جليدية»، حتى أن الطبيعة نفسها تتصف بالتفاوت الحاد ذاته، والذي لا يترك صداه في الروح العربية وحدها، وإنما يتجاوزها إلى أكثر الجوانب المختلفة للثقافة العربية، وتبعاً لغوتيير فإن:

العرق الذي يتشكل في بيئة كهذه، وإن كانت تتمتع عادة بالهدوء والفرغ، يكون عرضة لانفجارات عاطفية مفاجئة وسريعة، ولاارتفاع لحظي في الطاقة ولكنه غير قابل للممانعة، وإلى أشكال متنوعة من كرم النبلاء والعنف المتوحش، إن العربي يمكنه أن يكون في الوقت نفسه جشعاً ومنفقاً، بخيلاً وكرماً، يستحق التقريع والإشادة، وبهذا يظهر العربي مزيجاً مشوشاً من الميول المتفاوتة، وعنده تلتقي الحدود وتمتزج، أو تتبع بعضها بعضاً دون نظام محدد: فليس هنالك انتقال من أمر لأمر، ولا تدرج، ولا فروق في المشاعر والأفكار.²

وفصل غوتيير الكلام حول «ترادف الحدود»، والذي رأى بأنه يشكل خصيصة من خصائص موقف العربي وأفكاره، وباستطلاع سريع يظهر غوتيير هذا الترادف الذي يحصل للأضداد في الطعام، واللباس، واللغة، والبناء، والزخارف التزيينية، والموسيقا، والأدب، والشعر، والتاريخ، والمؤسسات الاجتماعية والدينية في الدول العربية، وفي «التناقض الناتج عن ترادف العوائل التي يحكمها زعيم قوي في قبيلة أو دولة تتنازعها الفوضى»، وخلص غوتيير إلى استنتاج مفاده أن هنالك «مزيج ملحوظ من الأعراف الديمقراطية والاستبداد الحكومي

(1) كتبت الدراسة في وقت كان الباحثون لا يزالون يستخدمون فيه مصطلح (عرق) بينما نفضل في أيامنا هذه أن نستعمل مصطلح (شعب) عوضاً عنه.

(2) ليون غوتيير (Léon Gauthier): مقدمة في دراسة الفلسفة الإسلامية: ص 34-36.

العقل العربي

الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

يميز المجتمع المسلم¹. وبينما ليست كل الأمثلة التي اقتبسناها من غوتبير ذات دقة كبيرة، فإن فكرة الحدود باعتبارها إحدى خصائص العقل العربي يبدو أنها ذات أساس صلب من الحقيقة.

وهذه وينيفريد بلاكمان، والتي أمضت عددا من السنين في قرية مصرية تقع في أعالي النيل، سجلت عددا من الملاحظات على التفاوت الحاد الذي يلاحظ بين منطقة وادي النيل الخصبة وبين ما يحيط بها من صحراء قاحلة جافة. حيث وجدت أن هذا التفاوت ينعكس من خلال شخصية الفلاح المصري. فكتبت:

من الحقائق المميزة أن أكثر الصفات اختلافا في الشخصية يمكن أن توجد في فرد واحد. فالفلاحون المصريون... بشكل عام مبتهجون وراضون عن حياتهم بشكل مدهش. وهم سريعو الفهم والبديهة، ويحبون النكتة بشغف وإن كانت موجهة ضدهم. وعادة ما يتمتعون بذاكرة حادة، وهم بعيدون عن الهموم، ولطيفون وشديدو الكرم، إضافة إلى أنهم يعملون بجهد.

لم تكن تلك إلا جانبا واحدا من الصورة. أما الجانب الآخر، وكما تراه بلاكمان، فهو أنهم «في الوقت نفسه عاطفيون جدا، ومخادعون جدا، وسريعو الانفعال. وبالعموم شديدو الجهل. ولا يخفى على من يراقبهم أنهم يفتقدون تقريبا كل ما له علاقة بضبط النفس». وبخاصة «تحت تأثير الغيرة، والتي تتحول دوما إلى رغبة مستعرة، فيصبح الرجل أو المرأة قابلا لارتكاب أي نوع من الجرائم العنيفة». وتضيف بلاكمان أنه حتى الرجل الحصيف المؤدب المسالم قد يتحول بين لحظة وأخرى إلى مجرم متوحش².

وثمة مظاهر أخرى تعبر عن تجمع الأضداد في شخصية الفلاحين في شمال مصر، حيث كتبت بلاكمان أنه بينما لم يكن هؤلاء شعبا مولعا بالحروب «ففي القتال الذي

(1) غوتبير: مصدر سابق: ص 37-64.

(2) وينيفريد بلاكمان (Winifred Blackman): الفلاحون في شمال مصر: ص 23-24.

العقل العربي

الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

ينشب ما بين القرى، والذي ليس أمرا نادرا، يبدون أحيانا قسوة مفاجئة». وفي موقفهم تجاه الأعراب، أي من ينتمون إلى قرية أخرى، تجد تضادا عجيبا: فهم «يعاملون بحسن الضيافة والبشاشة باعتبارهم ضيوفا»، ولكن «في بعض الأحيان، ينظر إليهم بقدر كبير من التوجس وكأنهم ليسوا من البشر»¹. وفيما يتعلق بالنساء، يتصف مزاجهن بالتضاد بقدر أكبر: تقول بلاكمان: «لسوء الحظ أن معظم النساء لديهن مزاج خطر وصعب»².

أما الأب هنري حبيب عيروط، والذي كانت له معرفة عن قرب بالفلاح المصري، إضافة إلى كونه مصرية، فيضيف عدة صفات لصورة شخصية الفلاح المصري المختلطة. فكتب أن الفلاح المصري «يجمع في شخصه السذاجة والخبث، والفردانية والجمعية، والبخل والحرص، والمعاناة الطويلة والمزاج المضطرب». وفي الأمور المالية «كلما ازداد مقدار المال التي يخزنها الفلاح في مخبأ سري داخل بيته، كلما ازدادت فرصة أن يخرج ذلك المال أمام الناس في ولائم الأعياد وينثره من أجل المظهر والمتعة». وهذا الفلاح معتدل ومسالمة وصبور ولا يبالي، «فعقله مذعن وجبري يتقبل الأمور كما هي». ولكنه في الجانب الآخر «يتصرف بدافع اللحظة دون أي اعتبار لتمييز أو حس بتناسب الأمور، ودون تحسب لأهمية ما حدث أو عواقب ما يقوم به». وإذا ما حدث شيء «يصدمه بطريقة لا يتحملها... فإنه يرد بعنف، ويعدي الآخرين بنفس الرغبة، وفي لحظة كهذه لا تساوي حياة المرء إلا النزر القليل». وخاصة «فلاحو الصعيد [جنوب مصر] فهم كالبركان الذي ينفجر عند أقل الاحتمالات». ومع ذلك «فإن نوبات الانفجار لا تستمر طويلا، ويتبعها انسحاب أصبح عادة تلاحظ في شخصياتهم أكثر من أي أمر آخر»³.

وهذه سانيا حمادي، وهي باحثة عربية معاصرة، تعلق على التفاوت في المزاج العربي، حيث وجدت أنه مستقطب بين الغضب السريع وضبط النفس، فتقول:

(1) بلاكمان: مصدر سابق؛ ص 129.

(2) بلاكمان: مصدر سابق؛ ص 38.

(3) هنري حبيب عيروط: الفلاح المصري؛ ص 141-145.

العقل العربي

الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

إن العربي نفسه الذي تتصف شخصيته بأنها عدوانية وميالة إلى العراك، والتي تبدي عاطفة شديدة خلال نوبة غضب أو أسى سريعة الاشتعال، تراه لا يظهر بشكل طبيعي بهجته أو خوفه أو ضعفه. إن هذه الأحاسيس ليست عبثية، بل هي قادمة من تعبير ايجابي مكشوف للجميع»¹.

وعلى العموم، وكما اقترحنا مسبقاً، تتمحور الحياة العاطفية للعرب حول عدة متلازمات متطابقة، وكل منها مرتبة بين حدين متناقضين. فهناك، قبل كل شيء، الاستقطاب ما بين الانسجام والخلاف. ثم يأتي الاستقطاب ما بين العار والشرف، والعنف والخضوع، والثأر والصفح، والتنافس والتعاون، والمخادعة والصراحة، والفخر والتواضع، والقسوة والرقّة، والنشاط والخمول، والاعتدال في الجنس أو المبالغة فيه.

ومن هذه المتلازمات ما هو مدعاة للإطراء ويؤدي إلى تعزيز المتلازمات الأخرى. وهكذا، على سبيل المثال، يتم توجيه السلوك والتحكم به دائماً من خلال السعي المزدوج لمحاولة تجنب ما هو مؤذ والقيام بما هو مشرف. أما المتلازمات الأخرى، وهي لا تزال مستمرة إلى اليوم، فتعمل وفق أهداف متقاطعة وتسحب الفرد باتجاهين متعاكسين. ومثال على هذا متلازمة الانسجام والخلاف: فالرغبة من أجل تحقيق الانسجام أو المحافظة عليه على نطاق واسع تعمل بعكس عمل الرغبة في الخلاف لتحقيق منافع صغيرة محلية داخلية والمحافظة عليها. إن معظم المتلازمات التي سردناها في ما سبق لا تنتمي إلى النمطين السابقين بل إلى نمط ثالث. فهي تتقاتل من أجل السيطرة على العربي، وينتج عن ذلك أنه يغير اتجاهه من حد إلى آخر: ففي لحظة يراه الناس مأخوذاً بمشاعر لا يستطيع السيطرة عليها، وفي لحظة أخرى تراه يستعيد رباطة جأشه؛ وتارة تراه عنيفاً، وأخرى تراه خاضعاً.

ولا زال ثمة استقطاب آخر يبنغي الحديث عنه؛ وهو استقطاب (الإله-الإنسان) والذي يرى حازم نسبة أنه قريب من «حالة انفصام شخصية في الأفكار والعواطف» ما بين

(1) سانيا حمادي: مزاج العرب وشخصيتهم، ص 54-55.

العقل العربي

الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

«مستويين من الواقع». وهذا واضح في القوانين الحالية المستمدة من القوانين الغربية والمتبعة في العالم العربي: حيث تمتزج فيها التقاليد العربية الإسلامية مع المبادئ العلمانية.¹

2. المزاج وضبط النفس

بالنسبة للعقل الغربي، يعتبر أكثر ما ذكرناه من تناقضات وتفاوتات غريبة وإثارة هو دون شك الجمع بين ضبط النفس والانفجار العاطفي، أو ما يمت إليهما من الجمع بين الخمول وانفجار النشاط. فهذه من الأمور التي لا يألفها الغربي بتاتا، ففي النظرة العامة الغربية يتوقع من المرء أن يسير على نهج واحد لا أن يتقلب من طرف إلى طرف يعاكسه تماما. وإذا ما حدث، وذلك في ظروف استثنائية، أن استدرج الغربي إلى فعل يعاكس سلوكه المنضبط المعتاد، فإنه يُعذر، أو يعتذر، بأنه فقد توازنه للحظات؛ وعادة ما يقطع على نفسه عهدا بأن لا يدع شيئا مدمرا كذلك يحدث له ثانية.

أما في العالم العربي، فلا يوجد مثل لهذه المسؤولية يرتبط بفقدان السيطرة على الأعصاب أو انفجار المزاج. بل على العكس: فمثل هذه الاختلاجات يتوقع أن تحدث من وقت لآخر، لأن نظرة العربي للطبيعة الإنسانية تفترض فقدان القدرة على ضبط الأعصاب بشكل دائم ودون انقطاع، وأي حدث قد يحصل في سياق الحياة اليومية الروتينية يمكنه أن يطلق شرارة مثل ذلك الانفجار، ويحول الشخص الهادئ المسالم الرزين إلى وحش غاضب خطير أحرق، ثم يعود هذا الوحش إلى حالته الأولى ما أن تمر اختلاجة تكدر المزاج.

ومن المهم بشكل خاص أن نلاحظ تواتر العملية التي يقوم ضبط النفس من خلالها بإفساح المجال للمزاج كي يقوم بثورته، فالشخصية تتغير بشكل كامل بتأثير الثغرة التي ينفذ من خلالها تيار الغضب والعنف وباقي العواطف القوية عابرا سدَّ ضبط النفس في فترة قصيرة بشكل مذهل. وإذا ما طلب مني أن أبحث عن ارتباط ما بين المزاج العربي

(1) حازم نسبية: أفكار القومية العربية؛ ص152.

العقل العربي

الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

والظواهر الطبيعية التي تكتنف بيئته. فسأفضل أن أشير إلى الوديان الصخرية الضيقة في الصحراء والتي تكون دوما جافة ولا حياة فيها. ولكنها عندما يهطل المطر. وإن كان على بعد أميال منها. فإنها تتحول فجأة إلى سيول غاضبة مدمرة تجرف أمامها الصخور وتدمر كل شيء يقف في طريقها. لتهدأ بعد عدة ساعات بنفس السرعة التي نهضت بها. وفي جميع الحالات. علي أن أعترف بأني أتذكر تلك الوديان في أكثر من مناسبة رأيت فيها رجلا عربيا هادئا متزنا يصيبه الغضب فجأة.

وكثيرة هي المشاهدات المتعلقة بهذا الانتقال السريع من ضبط النفس والهدوء إلى انفجار الغضب الذي لا يسيطر عليه. وهذه سانيا حمادي تناقش هذه المسألة بشيء من التفصيل. فتعرض كيفية تعبير العربي عن عواطفه في مجالات كثيرة. ف«العربي يتواصل مع الآخرين عبر الصراخ المصحوب بإشارات الغضب.» وعند المساومة في السوق يصيح ويتجادل في أمور تافهة. وإذا ما تعرض لأذى جسدي فهو «يعبر عن ألمه بحرية من خلال الكلمات والأصوات وحركات الجسد. وهو يتكلم ويشكو من ذلك بصراحة. ويظهر معاناته من خلال الأنين والتألم والبكاء.» وعندما تحدث حالة وفاة. «تسمح له ثقافته بأن يظهر سلوكا متفجرا بالعواطف. وأكثر من ذلك. يفترض به أن يظهر عواطفه وأساه بشكل مكشوف. فعليه أن ينتحب ويظهر ألمه وبؤسه.» وتعول المرأة بكاء عالٍ. ويتأسف الرجال. ولا يعتبر إظهار العواطف عند المصائب الشديدة أمرا مخلا بالرجولة. أما بالنسبة للغضب. فالعربي لا يملك مناعة ضده. وهو يشتعل غضبا بسهولة. ولا يكبح جماح غضبه؛ وإن أفلت فلا حدود لعواقبه. ويلاحظ كثرة العراك العائلي حيث يعتبر عادة يومية كما يقول المثل الشامي: «في كل مائدة عراق. ومع كل لقمة قلق.»¹

ويمكن للعواطف أن تنفجر في أية لحظة وفي مناسبات غير متوقعة. ومن ذلك ما يذكره محمد نجيب. أول رئيس لمصر (1952-1954). والذي تزعم مجموعة من الضباط الشباب الذين أجبروا الملك فاروق على التنحي عن الحكم. حيث ذكر بأنه عندما قام فاروق

(1) سانيا حمادي: مزاج العرب وشخصيتهم؛ ص43-54.

العقل العربي

الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

بمغادرة القصر الملكي «أقام خدم القصر، وفق التقاليد المصرية، مناحة كانت تسمع من على بعد ربع ميل». وعندما كان نجيب نفسه في لقائه الأخير مع الملك المخلوع، حيث رفضت كل طلباته وإن كانت صغيرة، يذكر بأنه: «كنا سوية مأخوذين بمزيج من العواطف إلى حد أن أعيننا كانت تترقق بالدموع»¹

وتميل العواطف لأن تتحرر من عقالها عندما يكون المكان مملوءاً بالناس. وهذا مجيد خدوري يصف عواطف الشعب العراقي التي تجعل من السهل عليه أن يتشجع ويدفع إلى القيام بمظاهرات ذات طابع عنيف، فيقول:

انضمت حشود من الشعب إلى الكتلة البشرية وتدفق المشاعر التي فاضت بها شوارع بغداد كلما قامت انتفاضة شعبية. وفي الماضي /قبل ثورة 1958/، ورغم الأضرار التي سببتها الانتفاضات الشعبية في الأرواح والممتلكات... كانت تلك الحشود كفيضانات نهر دجلة: قادرة على التدمير لكنها قصيرة العمر وسريعة الخمود. وكان النظام الملكي مدركاً بشكل جيد لطبيعة هذه الانفجارات العاطفية وتعلم كيفية التعامل معها من خلال إفساح المجال للطوفان كي يمر سريعاً. وطالما قامت الشرطة بمجرد توجيه الحشود وإزالة ما حطمته... /ولكن في ثورة 1958/ ما أن غابت الشرطة عن الشوارع، إلا وقامت الطاقة الهائلة للحشود بتخريب لم تشهد له بغداد مثيلاً²

وحتى أن فايز صايغ وهو مدافع مستमित وأحد الأصوات الداعية للعروبة، يصف الجماهير العربية بأنها ميالة «لنوع من العرض المفرط لحيويتها العاطفية» ويتبع ذلك بأنها «مفرطة العاطفية» وتتميز بـ«حماس ساخن وأعمى نوعاً ما»³

(1) محمد نجيب: قدر مصر؛ ص 139.

(2) مجيد خدوري: العراق الجمهوري؛ ص 52.

(3) فايز صايغ: فهم العقل العربي؛ ص 13-14.

العقل العربي

الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

3. العدوانية

إذا ما استثثرت العدوانية لدى العرب فستنفس عن نفسها بعبثية تطال أي شخص أجنبي. ففي الثاني من نوفمبر عام 1945، دعا قادة مصر إلى مظاهرات في ذكرى وعد بلفور، وكان أن المظاهرات التي خرجت لم تكتفِ بأن تحولت إلى أعمال شغب مضادة لليهود، بل نتجت عنها هجمات طالت كنائس الكاثوليك والأرمن والأرثوذكس. وفي يومي الرابع والخامس من يناير 1952، جرت مظاهرات مضادة للبريطانيين في السويس ورافقها نهب كنيسة قبطية وإحراقها ومقتل بعض القبط من قبل المتظاهرين. ويرى الباحث برنارد لويس في هذه الأعمال استمراراً لموقف في التقاليد العربية الإسلامية القديمة يعبر عنه بـ«الكفر ملة واحدة»، والمقصود من ذلك أن المسلمين جميعهم فقط (ومن بينهم العرب) يشكلون أمة واحدة على المستوى النظري على الأقل، وكذلك الأمر بالنسبة لغير المؤمنين¹.

ويحاول ويلفريد كانتويل سميث أن يشرح ميل العرب إلى الأعمال الحشودية من خلال الإشارة إلى عدد من العوامل النفسية: فهو يقول أن المجتمع العربي، أو المجتمع المصري «انحدر إلى درجة يكون فيها استخدام العنف أمراً لا بد منه. وأن برنامج الإخوان المسلمين:

تعبير عن الكراهية والإحباط والزهو والهيجان المدمر لأناس عاشوا لمدة طويلة فريسة للفقر والعجز والخوف. وكل نعمة يحملها إنسان يجد العالم الحديث فوق طاقته يمكنها أن تجد في حركة مثل الإخوان مجالاً للتحرك والإحساس بالرضى. إنها ردة الفعل العنيفة للمسلم العربي على ما تعرض له عالمه من هجوم... إنها ردة فعل هؤلاء الذين قفزوا إلى الواجهة، بعد أن ملوا من كونهم مسحوقين، تملؤهم متعة سادية قوامها الحرق والقتل. إن حريق القاهرة /في 26 يناير 1952/،

(1) برنارد لويس (Bernard Lewis): الشرق الأوسط والغرب: ص 95.

واغتيال رئيس الوزراء /محمود فهمي النقراشي في 28 سبتمبر 1948، وترهيب المسيحيين /اعتمادا على حوارات للكاتب مع مسيحيين مصريين، والحدة والكراهية في أدبياتهم: كل ذلك يمكن فهمه في سياق شعب ضل الطريق. وتضارب تراثه مع الحداثة، وكان قاده من المخادعين. ولم تعد مثله العليا صالحة للاستعمال. من هذا المنظور يمكن القول عن الاندفاع الإسلامي الجديد أنه قوة جاءت لا لحل المشاكل، إنما جاءت لتخدير أولئك الذين لم يعودوا قادرين على تحمل العجز عن حل تلك المشاكل¹.

إن ما ينبثق عن هذه المشاهد وغيرها هو صورة لنمط من البشر مستعد دائما ليرمي في الهواء كل آداب السلوك، وخاصة عندما يكون في الحالة الحشودية، ويتصرف بوحشية. إن السبب الذي يدفع مجموعة بشرية ما إلى أن تتميز بهذا التذبذب بين حدين متضادين هما ضبط النفس والانفجار العاطفي الهائج، بينما توجد مجموعات أخرى تعيش نمطا قويا، يبقى ضمن الأسئلة الملحة التي لا يوجد لها حتى الآن إجابة مقنعة.

4. المستويات الوظيفية الثلاثة: الأفكار، الأقوال، الأفعال

إذا حاولنا أن ندرك الارتباط بين الجوانب المختلفة للشخصية العربية، فمن المفيد أن نتفحص الاختلاف الذي يوجد بين العرب ضمن المستويات الثلاثة للوجود والتي يمكن تمييزها في أي فرد أو جماعة. إن كل فرد منا ينخرط بشكل دائم في أداء فعل ما، ويعبر هذا الفعل عن نوايانا، ولكنه في الوقت نفسه، يتأثر بالعوامل أو النوايا الخارجية، ومنها السيطرة التي تمارس علينا من قبل المحيط الاجتماعي والبيئي. ويمثل عالم الفعل والنشاط المستوى الأول للوجود. أما المستوى الثاني فهو الأقوال: حيث نعبر بالألفاظ عن نوايانا التي لا نستطيع تنفيذها بسبب العوائق الخارجية. وبهذا الاعتبار، ينسجم التعبير اللفظي مع النوايا أكثر من الأفعال. بالإضافة إلى ذلك، يتوقف المرء عن التلطف بأمور

(1) ويلفريد كانتويل سميث (Wilfred Cantwell Smith): معنى الدين ونهايته: ص 158-159.

العقل العربي

الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

معينة لوجود سبب ما يتعلق بواقع المحيط الذي يعيش به. أما المستوى الثالث فهو النوايا ذاتها. وتتضمن الخواطر التي تسرنا. والأمني التي نحلم بها. والأفكار التي نؤمن بها. وما إلى ذلك. إن عالم العقل. كمصطلح يمكن إطلاقه على المستوى الثالث. يعتبر أكثر المستويات الثلاثة استقلالا عن المؤثرات التحديدية التي يفرضها المحيط. ومع ذلك. وبما أن الأفكار لا يمكن فرض الرقابة عليها. فإنها تتعلق بالواقع إلى حد كبير. ولا يمكن للشخص الطبيعي أن يستمتع بأفكار ذات خلاف واضح مع الواقع. وهو إن مارس بعض «التفكير الطموح» أو حتى «أحلام اليقظة» فإنه يظل دائما على دراية بالفرق بين أمثال هذه من أفكار العطالة وبين الواقع.

وفي ما يتعلق بالسيطرة التي يمارسها عامل الواقع على الأفكار والأقوال. لا شك في وجود اختلافات جوهرية في تأثيرها على كل من الأفراد والجماعات. ففي المجتمع الذي يتخذ توجهها عمليا نجد أن الشخصية النمطية تكون متأثرة بشدة بالواقع وبالأخص ما يصدر عنها من أقوال. أما على الجانب الآخر. فنجد مجتمعات لا يمارس فيها الواقع درجة عالية من التأثير على الأفكار والأقوال. وبهذا المعيار. يقف المجتمع الغربي على أحد الجانبين السابقين. بينما يقف العرب بالقرب من الجانب الآخر: إذ يمكن للتفكير والتعبير اللفظي أن يكونا بعيدين نسبيا عن التلاؤم مع ما تفرضه الظروف.

لقد وجد ي. حرقبي أن عملية التفكير والتعبير اللفظي يتمتعان عند العرب بدرجة عالية من الاستقلالية؛ فالأفكار والأمني والتعبير اللفظي عنها تنمو بحرية بعيدا عن سيطرة الواقع. وبما أن عملية التفكير غير ظاهرة للعيان في العادة. فهي بالأخص تمثل التفاوت بين التعبير اللفظي والأفعال الظاهرة. ولا علاقة لشدة الفعل أبدا بالتعبير اللفظي الذي يعبر عن وظائف عقلية كالمشاعر والإلهام والمثل والأمني والأفكار. ويتابع حرقبي فيرينا أن العديد من الباحثين العرب يكتفونهم أنفسهم مدركين للتفاوت ما بين أمني العرب ورغباتهم وأخيلتهم والكلمات المعبرة عنها. وبين الواقع الذي ينبغي أن تتفق معه أفعالهم. ومع أن قدرا معينا من التفاوت ما بين الايديولوجيا والتعبير اللفظي من جهة

العقل العربي

الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

وبين الأفعال من جهة أخرى إنما هو ظاهرة بشرية عامة. فإن ذلك التفاوت يبلغ قدرا كبيرا في العالم العربي، ورغم ذلك لا يمكن القول بوجود فاصل مطلق ما بين المثالي والواقعي عند العرب.¹

كما وردت ملاحظات مماثلة قبلها بعدة بسنوات للباحث مورو بيرغر الذي تحدث عن «ولع العربي بالمظاهر المثالية» الأمر الذي يلتصق به «عاطفيا رغم معرفته بتناقضه مع الواقع». وبينما يلاحظ وجود «تمييز ما بين المثالي والواقعي في مجتمعات أخرى أيضا». فإن تلك المجتمعات تعي بشكل أكبر «الفجوة الفاصلة ما بين الاثنين». ويتموضع المثالي في وعيها برسوخ أشد باعتباره أساسا لتقييم الواقع». لكن العرب من جهة أخرى «يخلطون بين الاثنين. مجاهرين بالإيمان. عكس الواقع. بأن المثالي ينجز بالسلوك ومتطابق مع الممارسة...». وهنالك مظهر حديث لهذه النزعة يتمثل في حب العرب لخطة «يمكن أن تكون مثالية. كلوحة للخط العربي» تتصف بـ«التأكيد على المظهر لا المعنى». وذلك دون أي اعتبار للقدرة على تنفيذ أمثال هذه الخطة. «وهنالك أيضا الشعور بأن المرء عليه أن لا يخرج عن حدود الخطة. بحجة أن الصورة المثالية كافية. وأنها دائما ذات جمالية سارة أكثر بكثير من انعدام الدقة واللانظام الذي يتصف به الواقع».²

ويتراءى لي هنا أن صلة نفسية توجد ما بين الظاهرتين اللتين ناقشناهما في ما مضى من صفحات. إن التفاوت ما بين السلوك المنضبط وغير المنضبط يمكن أن يتصل بالقوة غير الكافية التي تمارسها حقائق الواقع على النفس العربية. فالنفس المتأثرة جيدا وعميقا بعوامل الواقع لا تملك وقتا لانفجار العواطف التي لا تتصل بصله مع الواقع. هذا

(1) حرقبي: موقع العرب في الصراع العربي الإسرائيلي: ص376-378, 380.

(2) مورو بيرغر (Morroe Berger): العالم العربي المعاصر: ص160-161. وليس هنالك ثمة تناقض ما بين ملاحظة بيرغر حول ميل العرب إلى تبني الخطط. وبين ملاحظتي حول نفورهم من التخطيط طويل الأمد. وذلك لأن بيرغر إنما تكلم عن العرب المتأثرين بالحدائث والتغريب. وهم لا يزالون قلة. بينما تكلمت أنا عن الأغلبية المتأثرة بالتقاليد. وحتى أن بيرغر يقول في الصفحة 161 من كتابه هذا بأن «المرء يمكنه الإحساس هنا بتأثير القدرية الدينية أيضا: فمن الجيد جدا للإنسان الفاني أن يضع الخطط. ولكن عليه أن لا يتحدى القدر من خلال محاولة تنفيذها».

العقل العربي

الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

الانفجار الذي يتمثل بنوييا مع «غضب العاجز» الذي يعبر عنه بنوبات مزاجية طفولية؛ بل إنها عوضا عن ذلك تحاول التعامل مع إحباطات الحياة التي لا مناص منها بردات فعل عقلانية هادفة. وعلى نحو مشابه، يمكن النظر إلى الفجوة القائمة بين الأفكار والأقوال من جهة. وبين الأفكار والأفعال من جهة أخرى. باعتبارها نتيجة للفشل في اختراق الواقع بشكل كافٍ. ومن يتسلى بالأفكار ويتلفظ بأقوال لا يمكن ترجمتها إلى أفعال إنما يتسلى برحلة في عالم الخيال لما فيه من إرضاء عاطفي للنفس. ورغم أن هذا الإرضاء ليس شديدا كحالته عندما ينتج عن الانفجار العاطفي، فإنه يستمر لمدة أطول وينجز الهدف الأساسي ذاته: القضاء على عالم الواقع المرفوض، والسماح للفرد بالعيش، لمدة مهما طالت أو قصرت، في عالم من صنع أمنيته.

إن ما سبق جميعه لا يعني ما ادعاه بعض الباحثين العرب والغربيين بوجود «خلط» في العقل العربي بين الواقع والخيال. بل إن الأمر يتجاوز ذلك، إذ إن ما يفعله هذا العقل هو الاختيار الهادف بإعطاء أهمية أكبر في الأفكار والأقوال للأمني دون الواقع. ولما يحب المرء أن تكون الأمور عليه لا ما يكون عليه واقعا الموضوعي. وفي اعتقادي، لا أرى أن ذلك يشير إلى وجود خلط. ولكن توجد على الأقل منطقة واحدة في الحياة يتصرف فيها الغربي على نحو مشابه لتصرف العربي: وهو الدين. فالغربي يختار في هذا المجال بشكل هادف أن يولي أهمية أكبر في أقواله وأفعاله لأعمال الرب، والذي يمثل ما يرغب المرء بأن تكون الأمور على شاكلته، أكثر مما يولي لعلاقة السببية المقيّمة موضوعيا فيما يخص المعاناة الإنسانية. وبالنسبة لعلماء البوذية وأي تابع لديانة أخرى من الديانات غير الإلهية، يبدو ذلك «خلطا» بين الواقع والخيال. لكن الغربي محمي من هكذا «خلط» في غير المجال الديني، ويعود ذلك بشكل أساسي إلى أنه ترك الدين في زاوية بعيدة من كيانه.

إن التنمية الثقافية العربية لم تقم بعد بالفصل بين الدين والجوانب الأخرى للحياة. ولذلك، لا يستبعد أن تفضيل العربي للأفكار (الأمني، الخواطر المثاليات، الطموحات...) على الواقع الحقيقي يخرج من دائرة الدين، ليخترق مع الدين كافة الجوانب الأخرى للحياة.

العقل العربي

الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

وبعيدا عن أن تكون هذه الرؤية تمثيلا للخلط بين الواقع والخيال. فإنها تعتبر الخيال جانبا أساسيا من الوجود في كل من هذا العالم (الدنيا) وما بعده (الآخرة). بينما يكون الواقع. والذي ينحصر وجوده في هذا العالم. وفي جزء وحيد من هذا العالم. لا يحظى إلا بأهمية قليلة نسبيا.

إن الطريقة التي نقيم بها عدم الاكتراث بالواقع والالتصاق بالخيال يعتمد إلى مدى بعيد على انطباعنا العام حول الشخص أو الجماعة المدروسة. فالعديد من أبطال التاريخ كانوا موضع إعجاب لتصميمهم البطولي على ملاحقة الخيال وعدم الاكتراث بالواقع. ومن الجانب الآخر. إذا كنا نتكلم عن شخص أو شعب لا يعجبنا. فإننا نميل إلى تناول موقفه أو موقفهم باعتباره بعيدا عن الواقع.

ولا نزال إلى يومنا هذا بعيدين عن معرفة محصلة التجربة التاريخية التي خاضها العرب منذ استقلالهم عن السيطرة الغربية. فالقوى التي دفعتهم إلى الأمام عديدة. ولكن يمكن تصنيفها بشكل عام في فئتين: تلك التي أطلقتها عملية التغريب. والقوى التي كانت موجودة في الشخصية العربية منذ قرون عديدة ولكنها كسبت مدى جديدا بعد الاستقلال. وتتكون القوى الأخيرة من الخصائص التي ناقشها هذا الفصل من الكتاب: التفكير والتصوير بالحدود؛ وتذبذب السلوك بين الانضباط والانفلات؛ والانفصال ما بين الأفكار والأقوال من جهة. وبين الأفعال من جهة أخرى؛ والنزوع إلى تفضيل الخيال على الواقع. إن كل من تلك الخصائص يمكن إظهارها على نحو إيجابي مع التعاطف. أو نحو سلبي مع الإدانة. ولكن الأهم من ذلك هو أن كلا منها يحمل في ذاته بذور نمو مثمر وانتهيار وذبول في الوقت نفسه. ولن يتمكن إلا مؤرخو المستقبل من أن يكونوا في وضع يسمح لهم بتقييم ما ستفتح عنه تلك البذور.